العراقيون ينفردون بتمسكهم بأشياء الماضي الصغيرة

نمنم عراقي: الحية والخلود

محمود سعيد*

■ يعتقد كثير من العراقيين حتى الآن أن الحية لا تموت، وأنها تغير جلدها بدل الموت، وأن من يريد قتلها يجب عليه أن يسحق رأسها. وإلا نمت من جديد. والتقيت شاعراً هندياً في دبي سنة 1995 أكد وجود الأسطورة نفسها عن الحية في الهند. ولست أدري إن كانت هناك شعوب أخرى تقول بذلك أم لا. فمن أين جاءت الأسطورة؟

جاءت الأسطورة من ملحمة الخليقة السومرية المعروفة بملحمة كلكامش، أو قلقميش كما يصر بعض دارسي الآثار على تسميتها، فقد دفع الحزن قلقميش على البحث عن سر الحياة بعد رؤية صديقه أنكيدو يموت. فترك ملكه وعزه وسافر وتعب وجاع وكاد يموت عدة مرات فأثار عطف الآلهة فدلته على مكان عشبة الخلود، وحينما غطس واقتلع العشبة من قاع الهور، وخرج تعباً أدركه النعاس، فغفا. ثم استيقظ على صوت غريب، وعندما فتح عينيه شاهد الأفعى تلتهم عشبة الخلود وتهرب. ولذا أصبحت خالدة لا تموت.

مضى على هذه الأسطورة أكثر من سبعة آلاف عام، لكن بعض العراقيين ما زالوا متمسكين بها. فلماذا؟

فرقة أم علي البصرية

من أبرز وأثمن الآثار السومرية في المتحف العراقي قيثارة من العاج تعلوها رأس ثور من الذهب مطعمة بالأحجار الكريمة، ولست أدري أسرق هذا الأثر بعد الاحتلال أم لا. وفي السبعينات من القرن الفارط شاهدت فرقة أم علي الرائعة، وكنت آنئذ في البصرة، وفرقتها متكونة من مجموعة من النساء يغطين وجوههن بأقنعة أشبه بأقنعة المصارعين في الولايات المتحدة، فلا يبدو من وجه عضو الفرقة الغنائية سوى العينين وأرنبة الأنف والفم وهذا هو المهم لأن الفرقة غنائية. لكن الملاحظ أن أهم آلة عزف عند فرقة أم علي الشعبية الغنائية هي القيثارة. وعندما أمعنت النظر فيها رأيتها نسخة مشوهة عن الأصل السومري، إذ لم تكن من العاج، كما لم تكن رأس الثور من الذهب. كانت كلها من الخشب المصبوغ. ثم وفق الله أم علي فانتقلت إلى الكويت، تفرعت من هناك إلى بضعة أفرع شملت معظم دول الخليج. وفي دبي رأيت فرقة شعبية عراقية ربما تكون هي فرقة أم علي أو إحدى أفرعها. ولم أفاجأ حينما رأيت القيثارة السومرية نفسها ما زالت أبرز آلات أم علي الموسيقية.

فكيف واصلت الفرق الشعبية العراقية إبقاء آلة موسيقية مستعملة مدة سبعة آلاف سنة بينما تخلت الفرق الرسمية عن تلك الآلة، ونبذتها، ولم تعترف بها قط؟ وتركتها للغرب يطورها ليظهر خبراء موسيقيون فيها يشار اليهم بالبنان. ذلك ما لا أستطيع أن أجد له تفسيراً لحد الآن.

أكو ماكو:

نستعمل في العربية الفصحى يوجد ولا يوجد. موجود وغير موجود.

ويستعمل أهل الشام بأقطاره كلها ودول الخليج: في. وما في.

أما المصريون فيستعملون: في وما فيش

وتستعمل شعوب المغرب العربي: كاين وماكاينش.

في العراق نشأت أهم الدراسات العربية، والعلوم العربية، والنحو العربي، والقواميس وأوزان الشعر العربي كما يعرف الجميع، لكن الشعب العراقي لا يستعمل لفظتين عربيتين كباقي الشعوب العربية بل لفظتين سومريتين كقول طه باقر: هما أكو وماكو.

ويقول إبراهيم السامرائي: إنهما أكديتان. أما الجيل اللاحق من علماء الآثار فيقول: أكو سومرية. وما عربية. وبهذا يزاوجون بين اللغتين.

إن أهم سؤال يطرح نفسه لماذا أبقى العراقيون على هذه اللفظة ولمَ لم يغيروها كباقي أشقائهم في الدول العربية؟

الرز:

تستعمل الشعوب العربية كلمة الرز للدلالة على الحبوب التي نعرفها ونطبخها ونأكلها بشكل مستمر، لكن العراقيين وحدهم من دون الشعوب العربية كلها يستعملون كلمة التمن.

فمن أين جاءت؟

وفي أول مربد عقد في العراق في بداية السبعينات التقيت العلامة جلال الحنفي وسألته بضعة أسئلة منها عن الطيور التي تحوم فوق دجلة فقد كان الكتاب يطلقون عليها بضعة أسماء مختلفة كطيور الماء، وعن كلمة تمن. فقال إنها صينية. وكان المرحوم عبد الكريم قاسم أرسله ليكون أول أستاذ للغة العربية في جامعة صينية، ثم غضبت عليه السلطة بعد 1963 فاستقدمته قبل أن يكمل مشروعه المهم أول قاموس عربي صيني عربي. وعندما استشارته الصين في أن يرسل بديلاً عنه بعد نحو عشرين سنة رشح المرحوم هادي العلوي.

ثم أكدَ العلوي هذا الشيء في أحد كتبه. ومن هذين الاثنين علمت أن كلمة التمن هي صينية، وربما يكون الصينيون هم الذي أدخلوا الرز اللذيذ إلى المطبخ العراقي فأراد العراقيون مكافأتهم على تلك الوجبة اللذيذة فاحتفظوا باللفظة الصينية إلى حد الآن. بعدئذ ردّ الصينيون المكافأة إلي العراقيين بأحسن منها فقالوا كل العالم عميان إلا العراقيين فهم عورٌ.

وهذا المثل ليس حديثاً وإنما يعود إلى أربعة آلاف سنة حيث كان في المنطقة التي تسمى الآن بحر النجف خليج كبير كانت السفن الصينية ترسو فيه وتنزل بضائعها لتتوزع في المنطقة كلها. ويبدو أن العلاقات الصينية العربية توطدت زمن الحكم العباسي، وحسبما يقول هادي العلوي إن السجل الإمبراطوري الصيني يذكر بالتفصيل طلب أحد أباطرة الصين، والذي عزل في مؤامرة داخلية، نجدة من المنصور لإعادة ملكه، فاختار المنصور ثلاثة آلاف فارس جيد التدريب وأرسلهم، وطلب من عماله تجهيزهم بخيول قوية في كل مرحلة من مراحل طريق الحرير الذي يمر من خلال إيران وأفغانستان وباكستان وشمال الهند ويصل الصين. وبالفعل مكنتهم تلك الجياد من الجري المتواصل طيلة النهار، وأوصلتهم الصين بوقت قياسي فاستطاع الإمبراطور بهم إرجاع عرشه، ثم خيرهم بين البقاء في الصين أو الرجوع فاختار معظمهم البقاء. ويبدو أن ماركو بولو التقى بعض أحفادهم في الصين وأشار إليهم.

الشاي:

يعدّ العراقيون الشاي بطريقة تختلف عن الآخرين، ويحبونه، ويغنون له وهناك أغنية مشهورة تمجده، وترفع من شأنه: خدري الشاي خدري. عيوني لمن أخدره.

وهي تحكي قصة حبيب يطلب من حبيبته إعداد الشاي، فيقول لها: أعدي الشاي ياعيني. فتجيبه الحبيبة: يا عيني لمن أعدّه؟

وهناك شاعر موصلي هو ذو النون أيوب وصفه بجملة رائعة فقال: الشاي خمر الكادحين.

وكان أحد شيوخ منطقة الفرات الأوسط يحب الشاي وعندما سئل لماذا تحبه: قال أحبه لأن لونه أحمر جميل. ولأن مذاقه حلو جميل. ولأنه موضوع في إناء جميل.

لحب العراقيين الشاي احتفظوا بأسماء أدواته الأجنبية كلها كما وردت لهم من غير تعريب. فهو يقدم بزجاجة يطلقون عليها الاستكان. فما أصل هذه اللفظة؟

لفظة استكان تشبه للفظة التمن. فكل العرب يستعملون كلمة قدح أو كأس للزجاجة التي يصب فيها الشاي إلا العراقيين فهم يستعملون كلمة استكان ولا يعلم معظمهم من أين أتت؟

قبل مئات السنين كان الكأس الزجاجي الصغير يصنع في روسيا، في منطقة تسمى استراخان. وكان يتواجد في المدينة نفسها معمل للسكر يطلق عليه العراقيون «القند» وعندما جاء الشاي في بداية القرن العشرين إلى العراق، استورد العراقيون السكر من استراخان لاستعماله مع الشاي، ووجدوا تلك الأقداح الزجاجية الجميلة فجلبوها هي وأطباق صغيرة جميلة جداً توضع فيها مع السكر، ثم جلبوا معها من نفس المكان «السماور» فاتخذه الأغنياء وسيلة لإعداد الشاي، أما الطبقة الوسطى، فكانت تستعمل إناءين لإعداد الشاي، واحد لغلي الماء أبقوا لفظها الإنكليزي كما هو «الكتلي»، والثاني لتحضير الشاي ويجب أن يكون من الفخار الصيني، ويطلقون عليه «قوري الشاي» وهي لفظة صينية محرفة عن اسم إمبراطور صيني كانت تلك القوارير تستورد في زمانه، بينما يطلق العرب جميعهم لفظتين عربيتين على ذلك الإناء إحداهما: إبريق الشاي. والثانية براد الشاي.

وهكذا نرى أن العراقيين ينظرون إلى الجاي (الشاي) نظرة أشبه بالتقديس، وتغيير الاسم نوع من التزييف، ولما كان المقدس لا يقبل التزييف، بقيت الأسماء على ما هي عليه. حتى أنهم يلفظون كلمة جاي كالصينين بالجيم لا بالشين كبقية العرب.

لذلك بقي كل ما يتعلق بالجاي على اسمه العجمي: الجاي «صينية» بدل الشاي. السماور «روسية»الكتلي إنكليزية بدل براد. القوري صينية بدل إبريق. القند فارسية بدل سكّر. الخاشوقة. فارسية أو تركية بدل ملعقة الشاي الصغيرة. لكنهم احتفظوا بلفظة عربية واحدة من أدوات الجاي مداهنة كي لا يغضبوا اللغة العربية وهي لفظة الصحن الذي يوضع فيه الاستكان، فأبقوها عربية: صحن.

الكرات الزجاجية

يطلق السومريون على اللؤلؤ عيون السمك، وكانوا يظنون أن الأسماك عندما تنفّق تسقط عيونها على محار فيحتفظ بها. ولقد شاهدت في الخليج العربي نوعاً من الأسماك لا يبقى من أعينها بعد الطهي إلا كرات صغيرة بيضاء أشبه باللؤلو.

ويطلق العراقيون كلمة دُعبلُ على عيون السمك.

ثم أخذوا يطلقون على الكرات الزجاجية التي يلهو بها الأطفال في لعبهم كلمة دعبل.

فهل هناك تفسير لهذا التلاقح الحضاري بين هذه الشعوب؟ هناك الكثير من الكلمات السومرية ككور تنور. وشه «شعير» وأدبا مدرسة. ما تزال مبثوثة في التعبيرات العامية العراقية بالرغم من اندثار الحضارة السومرية قبل آلاف السنين، ومن الغريب أن اسم أحد أبواب إحدى أقدم المدن العربية في التاريخ وهي الموصل اسم سومري ما زال يستعمل إلى حد الآن. ومثبت في الوثائق الرسمية. وهو باب «لكش» المتجه إلى جنوب العراق، بالرغم من أن لكش هذه مدينة أهملت بعد حمورابي وطواها النسيان.

ما سرّ احتفاظ العراقيين بالأسماء غير العربية؟

أمثلة أخرى:

أكو طوز هوايا فوق الجربايا.

ومعناها: يوجد غبار كثير فوق السرير.

يضرب المرحوم فاضل عبد الحق العبارة أعلاه مثالاً على انتقاء اللهجة العراقية لألفاظ معينة لتزيين رقعة الفسيفساء التراثية.

أكو سومرية يوجد
طوز تركية غبار
هوايا مغولية كثير
فوق عربية
جربايا فارسية. السرير

إذا سمع أي عراقي عبارة: يوجد غبار كثير فوق السرير. يفهمها حق الفهم ولا يحتاج إلى شارح أو مترجم. لكنه عندما يتكلم عن نفس المعنى يقول: أكو طوز هوايا فوق الجربايا.

ومن يتتبع اللهجة المحلية في العراق يراها تحتفظ بألفاظ أشبه بمعادن صدئة تحتاج إلى من يحك ذلك الصدأ ليستخرج لآلئ ثقافية تاريخية مهمة، فمثلاً يطلق العراقيون على الفوضى كلمة هوسة. وهي غير عربية، لكني عرفت بعدئذ أن كلمة هوسة تطلق على إحدى أكبر القبائل الإفريقية. وقرأت عن اتفاق قديم جرى بين تجار أثرياء في زمن الدولة العباسية وبين شيوخ تلك القبيلة لتصدير عمال زراعيين، يعملون في البصرة ثم تكاثر هؤلاء حتى عُدوا مئات الألوف، ومن ثم تزعمهم شخص تدعي كتب التاريخ أنه فارسي، لكني لا أعتقد ذلك. ألحق زعيمهم نسبه بالرسول وثار بهم، واحتل البصرة وخربها، ودمرها تدميراً كاملاً بحيث أنه استطاع أن يمحو معظم آثارها، وكانت تلك أعظم ثورة يقوم بها العبيد في التاريخ، واستمرت أربع عشرة سنة بالمقارنة مع ثورة سبارتاكوس التي لم تدم سوى بضعة أشهر. قضى الخليفة الموفق على الزنج، لكن بعد فوات الأوان، فأصبح خراب البصرة مثلاً شائعاً في الأدب العربي. فيقال دائماً: بعد خراب البصرة.

ما آلت إليه البصرة يعزى إلى فوضى تسببت بها قبائل الهوسة فأطلق العراقيون لفظة هوسة على كل فوضى.

وهنا يعود السؤال مرة أخرى: لماذا يحتفظ العراقيون بآثار الماضي وكلماته حية إلى حدّ الآن؟

جميل جمال.
جميل جمال مالوش مثال
صدق اللي آل جميل جمال

هذا هو المقطع الأول لكلمات أغنية المرحوم فريد الأطرش السوري الجنسية والمصري لحناً وغناءً وفناء ولهجة وحباً وهجراناً وحياة وموتاً. غناها فريد الأطرش يطري فيها جمال الراقصة الغادة السمراء الجميلة سامية جمال التي أثرّفنها في عموم الوطن العربي آنئذ.

لكن الأغنية لا علاقة لها بموضوعنا إلا بتاريخ هذين الاسمين.

يعتقد كثير من المؤرخين أن أقدم اسم عربي هو يعرب والد قحطان اليمني، وأخذوا ذلك عن الرواية الشفوية التي سجلت بعد الإسلام. لكن الوثائق المستخلصة من الرقائم الآشورية والبابلية والسومرية تذكر أن اسمي جمال وجميل كانا شائعين في الزمن السومري والأكدي والبابلي. إن اسم جمال مأخوذ من الجمل. لأن الجمل حيوان وسيم جداً ومن ينظر إلى الجمل عن قرب يرى فيه معالم كبرياء وأنفة وتناسق شديدة، ومن الجمل اشتق العرب المصدر جمال والفعل جمّلَ ومئات الكلمات الأخرى ومنها جميل كصيغة مبالغة للجمال. ومن أنثى الجمل «الناقة» اشتق العرب الشق الثاني من الجمال وهو الأناقة والتناسق. ولا توجد أي لغة شقيقة للعربية كالأكدية والبابلية والعبرية والآشورية والأثيوبية الخ فيها ما يعني الجمال والأناقة بنفس الأحرف.

إذن فكلمتا جمال وجميل هما أقدم اسمين عربيين في التاريخ كانا متداولين منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولحد الآن.

استعملت كلمة جميل أكثر من جمال. بسبب أن جميل صفة، وجمال مصدر، ولم تستعمل جمال إلا في العصور القديمة والعصر الحديث، أما كلمة جميل فكانت تستعمل باستمرار، وأول مومس اشتهرت في العصر الإسلامي كانت أم جميل، وهي من الكوفة وتسببت في القضاء على مستقبل أحد أدهى دهاة العرب السياسيين المغيرة بن شعبة، فقد كان والياً لعمر بن الخطاب، وشهد ثلاثةٌ أنهم رأوا المغيرة في وضع مشبوه معها، وعندما سألهم عمر أرأيتم الميل في المكحلة؟ قالوا نعم. فقال لهم أين رابعكم؟ وأقام عليهم الحد، لأن المفروض أن يكون عدد الشهود أربعة لكنه عزل المغيرة ورماه في مزبلة التاريخ، فلم تقم له قائمة حتى مات.

الطعام

لست أدري هل هناك شعب غيرنا يحتفظ بأكلات يعود أصلها إلى أكثر من ألف سنة؟

نعم لكن ليس مثلنا فلم أعثر إلا على مثل واحد. فقد دخلت التاريخ أم علي بأكلة لذيذة ما زالت تعدّ في مصر من الحليب والحلوى.

ودخلت بوران زوجة المأمون التاريخ بأكلة أخرى في العراق هي البورانية وتعد من الباقلاء الخضراء ولحم الضان بالثوم والتوابل وقليل من الرز.

لكن هناك عشرات الأكلات ظلت في العراق منذ العصر العباسي وإلى حد الآن. منها الهريسة، الكليجة، اللوزينة، المحلبية، ومن يتتبع كتب التراث يرى المئات منها، لكني أشير إلى ما صادفني في قراءاتي وهي قليلة مقارنة بالمختصين. ولا يزال المواصلة يستعملون إلى الآن كلمة جلاب للماء البارد، الرز المفلل وهي إرث عباسي.

وكلا اللفظتين كانتا مستعملتين في العصر العباسي أيضاً.

فرقعة الإصبع

ذكر أحد كتب التراث أن ثلة من القضاة الأصدقاء كانوا يسهرون في العهد العباسي المجيد على الكاس والطاس وأغاني الكواعب الملاس.

وحينما يأخذ الطرب منهم مأخذه يخلعون العذار ويغمس كل منهم لحيته بالشراب ويرشه على الآخرين كماء الورد، وأنهم يتجاوبون مع الشادن الصداح فيرددون مقاطع الأغنية ويفرقعون الأصابع.

الخبر عادي جداً بحيث ترى مثيلاً له الآن في أي بار من بارات شيكاغو أو لندن أو القاهرة أو باريس أو بغداد. لكن ما يستلفت النظر هو فرقعة الأصابع.

فما هي فرقعة الأصابع الخالدة تلك؟

هي إخراج أصوات معينة بتحريك سبابة اليمنى إلى فراغ السبابة والخنصر من اليد اليسرى فيحدث صوت يستعمله المطربون.

الاستنتاج

مما تقدم نرى أن العراقيين يتفردون عن سائر معاصريهم من الشعوب الشقيقة والمجاورة بتمسكهم بأشياء صغيرة من الماضي ليست بذي بال أشبه بالنمنم الملون. فما سبب هذا التمسك؟ وهل هو ظاهرة صحية أم مرضية؟

في رأيي يعود تمسكهم بهذه المنمنات لأن العراق كان مركز إمبراطورية حضارية أولى لمدة أكثر من خمسة آلاف سنة، والتمسك في الأصول مع تطويرها مبدأ أساس في كل حضارة.

أما هل هذا التمسك ظاهرة صحية أو مرضية فأمر يعود الحكم فيه إلى الفلسفة وعلم النفس والاجتماع وهذا ليس من اختصاصي.

* روائي عراقي مقيم في الولايات المتحدة وهذا نص محاضرة ألقاها في جامعة شيكاغو في الندوة العربية.

تظاهرة واسعة لحركة «أدباء وفنانون» بمعرض الكتاب وتنديد ببقاء فاروق حسني وطلب الحرية لأيمن نور

القاهرة ـ «القدس العربي»:

أطلقت حركة «أدباء وفنانون من أجل التغيير» تظاهرة واسعة بمعرض القاهرة الدولي للكتاب في دورته الثامنة والثلاثين.

وقد كان يوم الجمعة الفائت يوما مشهودا في أيام المعرض الممتد من تشرين الثاني (نوفمبر)، حيث امتلأت الشوارع الخلفية بعربات ومصفحات الأمن المركزي وانتشر عدد كبير من الضباط ورجال الأمن المتخفين في الملابس المدنية وكذلك الذين يرتدون الملابس العسكرية. وكان تفتيش الحضور دقيقا والاهتمام بحركة الدخول والخروج في أعلى حالاته. وقد شارك في التظاهرة ما يقرب من ثلاثة آلاف من كل أطياف المعارضة.

وكان الناشر محمد هاشم مدير دار «ميريت للنشر والتوزيع» قد ألقي القبض عليه حال دخوله إلى المعرض حيث استولى الأمن على حقيبته التي كانت تحوي بيان الحركة الذي كان مزمعا توزيعه مع فعاليات التظاهرة، غير أن الأمن أفرج عنه بعد وقت قليل بعد أن صادر الحقيبة وما تحويه من بيانات وأوراق.

وقد أعلنت الحركة على لسان المتحدث باسمها الفنان عادل السيوي أن التظاهرة كانت تستهدف أولا التعبير عن وجود الحركة لا سيما وأن هذا هو أول معرض للكتاب يحل بعد إنشائها، بالإضافة إلى ان الحركة تعلن من خلال التظاهرة رفضها الكامل لبقاء فاروق حسني كوزير للثقافة بعد التخريب الذي شهدته المؤسسات الثقافية وكذلك بعد كارثة احتراق أكثر من اثنين وخمسين مثقفا في مسرح قصر ثقافة بني سويف والمعالجة الرديئة للوضع برمته، وإطلاق الوزير للعديد من التصريحات التي تُعد إهانة لكافة المثقفين المصريين.

وأضاف السيوي أن التظاهرة موجهة أيضا إلى التضامن مع رئيس حزب الغد الدكتور أيمن نور الذي قضت إحدى المحاكم بحبسه خمس سنوات في قضية يعلم الرأي العام بمختلف طوائفه أنها ملفقة.

وقد شهدت التظاهرة، التي طافت أرجاء المعرض، دون اشتباكات أمنية مباشرة، شهدت إطلاق العديد من الشعارات والهتافات التي تعيد التأكيد على رفض مبارك ونجله جمال الذي يشغل موقعا بارزا في الحزب الحاكم هو أمانة لجنة السياسات، كما اعلن المتظاهرون تضامنهم مع أيمن نور ورفضهم لاستمرار وزير الثقافة في موقعه.

وكانت لجنة أهالي شهداء ومصابي كارثة بني سويف قد أصدرت بيانا أشارت فيه إلى أنه بعد ثلاثة أشهر من المحرقة لم يتحقق شيء من المطالب العادلة لأهالي الضحايا والمصابين، لذلك اجتمع الأهالي وقرروا تشكيل لجنة تكون مهمتها متابعة الشق القانوني في الكارثة وأبعادها المدنية والجنائية والتعويضات التي يمكن أن تترتب عليها، كذلك التنسيق والاتصال بكافة المهتمين من أفراد وهيئات المجتمع والسعي لاستمرار الضغط الإعلامي على كافة الأجهزة المعنية إلى ان تتحقق المطالب التي ما زالت تتمسك بمحاكمة المسؤولين عن الكارثة والإسراع بإصدار تقرير المعمل الجنائي وإنهاء التحقيقات، ومع منح الضحايا لقب شهيد يترتب عليه من حقوق وإطلاق أسماء شهداء المحرقة على القاعات والمسارح المختلفة التي تملكها الدولة.

يذكر أن النيابة العامة أحالت الدكتور مصطفى علوي الرئيس السابق للهيئة العامة لقصور الثقافة وثلاثة من القيادات إلى المحاكمة بعد ما ثبت من تقصير فادح في تأمين القاعات التي وقعت بها الكارثة.

هذا وكانت قد حدثت العديد من الاشتباكات بين رواد المعرض وأجهزة الأمن من صباح يوم السبت الماضي حيث كان مقررا إغلاق المعرض عند الساعة الثالثة ظهرا حسبما تقرر سابقا وذلك في الأيام التي تلعب فيها مصر إحدى مبارياتها في البطولة الأفريقية، وكان مقررا لهذا اليوم لقاء مصر وكوت ديفوار، غير أن أجهزة الأمن حاولت طرد الرواد عند الواحدة ظهرا وأوقفت دخولهم منذ الحادية عشر صباحا، وهو ما أدى إلى وقوع العديد من الاشتباكات حيث تم منع ناشرين يحملون آلاف النسخ من الكتب للعرض في دورهم كذلك تم طرد عشرات ممن يأتون من اقاليم مصر المختلفة لمشاهدة المعرض، ولم يقدم رجال الأمن أية مبررات لذلك.

وكانت الأجهزة الأمنية قد توصلت إلى هذا الحل بسبب التخوف من التجمعات الكبيرة بسبب اقتراب المسافة بين مكان إقامة المباريات في استاد القاهرة وبين موقع معرض الكتاب الذي لا يبعد عنه أكثر من كيلومتر واحد.

هذا وقد تواصلت فعاليات معرض القاهرة الدولي الثامن والثلاثين للكتاب بأرض المعارض بمدينة نصر، وذلك وسط حضور أقل من المعتاد لم يغير وتيرته حلول إجازات نصف العام الدراسية، ويبدو ان بطولة كأس الأمم الأفريقية افلحت في السيطرة على حواس واهتمامات النخب التي كانت ترتاد المعرض، في الوقت الذي ظلت فيه معظم الندوات ـ باستثناء ندوات السرايا الرئيسية ـ دون جمهور، بل وشهد عدد من الخيمات إلغاء كامل لمعظم الندوات بسبب عدم حضور الجمهور والنقاد معا، مثلما حدث في مخيم الرواية وفي أكثر من ندوة.

وكانت الأيام الثلاثة الماضية قد شهدت عددا من الفعاليات التي كان من بينها ندوة موسعة حول الترجمة من العربية للغات الأخرى وقد شارك فيها يني ميلاخر ينودي المستشار الثقافي اليوناني، مارك لينز مدير قسم النشر بالجامعة الأمريكية وبدر الدين عمرو زكي وهو كاتب ومترجم سوري والناشر حسن حماد وادار الندوة الدكتور ناصر الأنصاري رئيس هيئة الكتاب.

أشار المستشار الثقافي اليوناني إلى أن الترجمة تأسست عليها الحضارة الغربية حيث قامت ووصلت للعالم عن طريق الترجمات التي قام بها العرب وهناك اتفاق مع دور نشر يونانية على أن نقوم بترجمة مختارات من القصة والمسرح العربيين بحيث نختار أهم الكتب التي حازت على إقبال كبير من القارئ اليوناني، وأضاف أن القيمة الفنية محل اعتبار في جميع الحالات، وأشار إلى ان السفارة اليونانية بالقاهرة تقوم بترجمة مختارات لكل الفائزين بجائزة كفافس وأن التراث اليوناني القديم في معظمه مترجم إلى العربية وهو ما يؤكد على انتقال الحضارات والتعارف عليها من خلال الترجمة حيث تسقط حواجز المعرفة.

أما الناشر حسن حماد فقد أشار إلى أنه من خلال ترجمته الأدب العربي للألمانية اتضح له أن 70 % من الكتب المترجمة من الأدب العربي للألمانية مترجمة من خلال لغة وسيطة مثل الإنكليزية أو الفرنسية بينما كان يجب أن تترجم من العربية إلى الألمانية مباشرة، وأضاف أنه من الصعوبات التي تواجه حركة الترجمة أن الكتب المتاح ترجمتها قليلة أما التي تمت ترجمتها بالفعل لم تلق اهتماما كبيرا من القارئ الألماني، لذلك فقد قام حماد بإصدار مجلة باللغة الألمانية تستطيع تقديم الأدب العربي للقارئ الألماني.

أما مدير قسم النشر بالجامعة الأمريكية مارك لينز فقدم إحصائية تقول إن ما ينشر في العالم مليون كتاب سنويا يترجم منها 10 % أي أقل من 1 % من هذه الكتب إلى العربية ثم أضاف أن نجيب محفوظ ترجم عن طريق الإنجليزية إلى حوالي اربعين لغة منها الفرنسية والألمانية والإيطالية واليابانية، وأضاف لينز أن هناك بعض الصعوبات التي تواجه انتشار الكتاب العربي حيث الترجمة باهظة التكلفة والحوار بين الناشرين غير مستمر، وهناك مشاريع كثيرة للترجمة لكنها تحتاج إلى تمويل هائل. أيضا شهد محور كتب وكتاب مناقشة لكتابين هما «تاريخ الأمة العربية» و«جغرافية وطن عربي بدون حدود» والتي شارك فيها المنجي بوسنينة رئيس المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة والدكتورة خيرية قاسمية ودارفي دعفوس وعبد الرحمن الأنصاري ويونان لبيب رزق وحبيب أبو دلالة وصلاح فضل.

الجدير بالذكر أن الكتابين جزء من موسوعة أنجزها عدد من العلماء والباحثين بتمويل منظمة اليونسكو.

هذا وقد استضاف المعرض في محور الشهادات الدكتور محمد أبو العينين الحاصل على جائزة الدولة التقديرية في العلوم حيث أدلى بشهادة مطولة حول تجربته.

أما في مخيم الرواية فقد ناقش الكاتب سعيد الكفراوي وحيدا رواية الكاتب الشاب محمد بركة التي حملت عنوان «الفضيحة الإيطالية» بعد أن تغيب نقاد الرواية وقد أدار الندوة الشاعر سماح عبد الله الأنور.

رسالة اعتذار.. الى أبي جعفر المنصور

حميد سعيد *

أورثتنا حلماً جميلاً..
أيها الحلمُ الجميلُ
مُذْ جاءَ عبد الله يحملها الى الضفتين.. شمساً
وهي في ماء الصباحات الجميلة تستحمُّ..
ولا يمسُ ظلالها البيضَ.. الأصيلُ
تتبغدَدُ الأقمارُ..
كلُّ قصيدة حملت غرورَ صبا نداءٍ جامحٍ..
جاءت اليها
خرجَ النواسيونَ من أسرارها الأولى..
هنا..
حيث استظلَّ النورُ بالجوريّ والدفلى.. وأسرارُ
الندامى بالنخيلْ
مُذْ كان عبدُ الله.. أطلقَ في ملاحمها الوعولْ
تتعلّمُ الأنهارمنَ لألاء فضتها..
وتصهل في مواسمها الخيولْ
حلمٌ جميلٌ..
تلك أبوابٌ ثمانيةٌ.. تزاحمُ عندَ سدرتها الفصولْ
من أيِّ بابٍ..
تخرجُ الدنيا.. وتدخلُ كلُّ أغنية بتولْ
يتعايش الخلفاءُ والفقهاءُ فيها..
حيث تلعبُ في حدائقها.. العصافير الشقيّةُ
والصقورْ
يتحاورُ الثملُ المشاكسُ في جواز الشكِّ والايمان..
والشيخُ الوقورْ
لا يتعب الثملُ المشاكسُ.. من متاهات الخمارِ
ولا يضيقُ بمكرِهِ.. الشيخُ الوقورْ

***

في طاق أسماء..
يبارك ليلكَ الشعراء..
ينتحلونَ معصيةَ المعاني.. في التصوّف والمجونْ
تتشابكُ الأحلامُ والأوهامُ.. حيث يواصلونَ الليلَ
بالليل القصائدْ..
بينَ منزلة الرؤى الأولى ومنزلة الجنونْ
حلمٌ جميلٌ..
أيّ ملحمةٍ.. يخطُّ حروفَها الطينُ النبيلُ
بغدادُ..
هذا الطائرُ الفضيُّ.. حيث يكون كان الشعرُ واللحنُ
الجميلُ
ولطالما غنّتهُ دجلةُ في لياليها.. ورددهُ المغنّونَ
الفحولُ
الموصليانِ الخرافيان، والعودُ السخيُّ
وترٌ غويٌ..
بغدادُ..
سحرٌ مآذنِ خضرٍ.. وسحرٌ بابليٌّ

***

هلْ كنتَ تدركُ.. أنّ في الطينِ العراقيِّ.. استفاقَ
الطيبُ
صارَ مدينةً.. هلْ كنتَ تدركُ.. أنّ هذا المسك من دمنا
المكابرِ..
ليسَ هذا المسك.. بعض دمِ الغزال..
هلْ كنتَ تدركُ..
أن كلَّ غزاتها اندحروا.. ويندحرونَ.. لكنّ السؤالْ
لمَ يحشدونَ على عفاف نخيلها
لمَ يشعلونَ النارَ في أحلامها..
لمَ يحقدون على أغانيها..
ويختطفون دفء الحزن.. فيها ؟!

***

مُذ كانَ عبد الله.. كانت هذه القرشيّةُ الخضراءُ..
بُستان المحبينَ.. المآذن والجَنانْ
ليلٌ.. لعاشقة تُحاول أنْ تنامَ ولا تنامْ
ليلٌ.. لعابدة يقصّرهُ القيامْ
ليلٌ.. لصعلوك يقيمُ طقوسهُ في كلِّ حانْ
ليلٌ.. لملوك يجرب أن يكون
ليل.. لعيارين ينتشرون بينَ حدائقِ الأسرارِ..
في أرض السوادْ
بغدادْ..
تقبلُ من مسارات الظنون الى مسرات الظنون..
سيلمُ عبدُ الله..
أشتاتَ الأساطيرِ.. الأقاويلَ التي تروى.. اشارات
الكواكبِ..
والرؤى..
ويقيم فيها.. بيتَ عبد الله
أبوابٌ ثمانيةٌ.. وأزمنةٌ تمرُّ.. يدقُّ بابَ الماءِ..
شيخٌ قانطٌ..
ويدقُّ بابَ القانطينَ.. فلا يجابُ
أو كان يحلمُ بالظباء البيضِ؟!
أم ألقى اليه صحائفاً بيضاً.. غرابٌ؟!
بينَ القيامة والقيامة.. تقبلُ الأشجارُ..
بينَ عواصفَ مرّت وأخرى في الطريق..
يظلُّ عبد الله..
من سمر الى سمرٍ.. ومن خبرٍ الى خبرٍ..
على ما كانَ..
حيثُ يكونُ.. كان الماءُ وانحسرَ اليبابُ

***

أمس استفقتُ على ضجيج مواكب..
فرأيتُ عيّارين من عشّاقها.. شاخوا..
وما شاخَ النشيدُ..
جاؤوا إليها من أقاليم الرياح..
وكلّما مرّوا على أحيائها.. رحلَ العبيدُ

***

أرأيتَ مقبرةً تُداهمُ سامري ليلٍ.. بأطرافِ الرصافةِ؟!

هل أقامَ دمٌ حييٌّ.. مأتماً للوردِ؟!
هلْ؟!
سأعيدُ اسئلتي الى صفحاتها الأولى.. واسألُ عن
كتاب الآس
عن شجن نواسيّ.. أقامَ هنا..
وأسألُ عنّ حديثٍ ضاع في عتماتِ محنتها الأخيرة..

كان يُروى في لياليها المُضيئةِ.. عن بني العبّاسْ
من هؤلاء؟!
سألتُ عبدَ الله.. هل كانَ المُنجم قد روى من قبلُ..
عن وحش الكوابيس..
الفراديسُ التي حملَتْ سفاحاً.. أسقطَتْ حُمماً
وحمّى والكراريسُ المخبّأةُ العتيقةُ..
أنجبتْ صُحُفاً.. على صفحاتها تتشمّسُ الغيلانُ
بينَ سطورها ينزو الضئيلُ الألعبانُ
وهل رأى بغدادَ..
يغصبُها أساورةٌ وروم
الملحُ يمشي في شوارعها.. وتغتالُ الكرومُ
زحفُ الجرادِ.. يجيءُ من مدنِ الرمادِ
مسَدٌ على الطرُقات.. حيثُ يمرُّ أبناءُ الأفاعي
يرتابُ أحفادُ الفريسيين من شجر البلاد
يرتاب أحفاد الفريسيين.. من أنهارها ونهارها
وسألتُ عبد الله.. هل كان الفريسيون في الزمنِ
الجميل..
يتواطأونَ على مفاتنها..
وهل قالَ المنجمُ.. أنّ ألحانَ السماءِ تموتُ ذات
ضحى
على وترٍ بخيل
في موكبِ النهرين.. كانَ يمامُها يصلُ التخومَ..
اليكَ أحملُ من حديث الماء.. سيدتي وصايا
هي ما تبقى من حريرِ القولِ.. أو وشم المرايا
بغدادُ..
لؤلؤةٌ مُجلّةٌ يشوه سحرها.. وحشُ الخطايا

***

ما عادَ لي إلا أناشيدي
وأسألُ عن مقام الصفحِ بين يديك.. فاعتذري لنا..
ما كان منّا.. ذلكَ الثقل البغيضُ
لحنٌ مريضٌ
لا الضوءُ مرَّ على السريرة.. لا الوميضُ
الوهمُ.. ثمَّ الوهمُ..
ما غنّتْ عليّةُ في منازلهمْ.. ولا ذُكرَ الغريضُ

***

منْ هؤلاء؟!
يقومُ عبد الله..
أبوابٌ ثمانيةٌ.. سيفتحها لنا..
للماء والشعراء..
للفقهاء والخلعاء..
هاأنذا أراهُ.. معمّماً بالريح.. يختارُ الحُميمةَ مرّةً
أخرى..
وليسَ سوى الحُميمةِ من طريقْ

***

أورثتنا حلماً جميلاً..
أيها الحلمُ الجميلُ..
بغدادُ.. ظلّ الله.. حيثُ تنزّلت..
روحٌ.. وضوء مُستحيلُ